وفاة مندوب مبيعات

- تعد تجربة مسرحية (وفاة مندوب مبيعات) بالإسكندرية هى تجربتك الإخراجية الأخيرة، وهى ترجمة جديدة لنص الكاتب الأمريكى (آرثر ميلر) فلماذا أعدت ترجمة النص الذى علمنا أن ميخائيل رومان كان أول من ترجمه وقد تبعه آخرون؟

قام ميخائيل رومان بمبادرة شجاعة حين ترجم هذا النص تحت عنوان (وفاة بائع جوال) ولعل غرضه من صيغة العنوان على هذا النحو، كان جلب التعاطف مع الشخصية الرئيسية (ويلى لومان) وأوضاع الشعب الأميركى فى ظل الأزمة الاقتصادية العالمية فى الثلاثينيات. وكنت قد قرأت هذه الترجمة أوائل عام ١٩٥٧م وتحمست لها، ولكن لم أكن أدرى شيئا من تقنيات فن المخرج، ولم أكن التحقت بعد بالمعهد العالى للفنون المسرحية، بالإضافة إلى أننى كنت أخشى أن تأخذنا نعرة النقد والهجوم ضد البنية الاجتماعية الأمريكية فاعتبرنا أن شخصية (القومسيونجي) واحد من ضحايا الرأسمالية الأمريكية! هذا الفهم المباشر والساذج جعلنا نأخذ المسألة على أنها مسألة نضالية أو صراع طبقى وليست قضية فنية بالأساس، رغم هذا كانت هناك مناطق قوية وناضجة

فى النص المترجم، جعلتنا نحيدُ عن هذه الاتجاهات العمالية المباشرة، وبعد ذلك حصلت على أكثر من ترجمة قرأتها فتبينت فيها أخطاء فادحة، ليست مجرد عيوب فى الترجمة من الإنجليزية إلى العربية، وإنما فى فهم المجتمع الأمريكى نفسه، ومن ثمّ فهم الشخصيات والأحداث.

- ولماذا اخترت هذا النص لفرقة الإسكندرية بالذات؟!

شغلنى هذا النص منذ قرأت ترجمته الأولى عام ١٩٥٧ كما قلت، ولكن الذى دفعنى لاختيار الإسكندرية هو الناقد الدكتور حسن عطية فهو ناقد يحمل توجهاً خاصاً فى اختياراته الفنية، إذْ نصحنى أن أذهب بهذا النص وأتوجه إلى الإسكندرية، حيث إنها مدينة صناعية تجارية (كوزموبوليتانية) تقبل، وفقاً لطبيعتها الخاصة هذا النوع من النصوص.

- وماذا حدث حين ذهبت بالنص إلى الإسكندرية؟

كنت مبالغاً فى ثقتى بعلاقتى بالمسرحيين السكندريين، فذهبت متفائلا ودعوت عدداً من الممثلين الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم، واجتمعت بهم عدة اجتماعات، ولاحظت تسلل عدد كبير منهم أثناء البروفات الأولى، حينما وجدوا أنفسهم أمام أدوار يصعب عليهم أداءها، خاصة شخصيتى : ويلى لومان ولينـدا، بالإضافة إلى أن المسرحية بها عدد آخر من الشخصيات لابد من صياغتها إخراجياً بمنتهى الدقة، هذا الأمر كان يتطلب وجود ممثلين قادرين أصحاب مهارات خاصة ولديهم الحد الأدنى من الوعى الاجتماعى و قدر ما من الثقافة،

أو على الأقل الاستعداد لتلقي النص أو تفهمه، ولكننى لاحظت أن نسبة التسرب تزيد يوماً بعد يوم، فأردت أن أعتذر رغم أننى لم أكن قد صرفت جنيهاً واحداً من الميزانية، ولكن مديرة العموم تمسكت بى، فظننت أن تمسكها هذا اعتراف منها بقدراتى وكفاءتى، ولكن يبدو أن أشياء إدارية ووظيفية أخرى جعلتها تتمسك بى على عكس سلوكياتها بعد ذلك، إذْ حرمتنى من بدل الإقامةُ وبدل السفر، بينما لم تتوان السيدة حنان شلبى مديرة قصر الحرية الذى كنت أعمل باسمه عن مساندتى، فقررت أن أحمل المسألة كلها على دماغى.

- وكيف خرج العمل الفنى إلى النور رغم تلك الصعوبات؟

حدثت مناورات كثيرة، فالمديرة المسئولة لم تكن توفر لنا مكانا للبروفات، فسعيت بشخصى إلى قطاع الفنون الشعبية الذى كان يرأسه الفنان على الجندى وكان يعمل على خشبة المسرح من الرابعة إلى الثامنة مساءً، وذهبت إلى أماكن أخرى مثل المركز الثقافى الروسى وجمعية الشبان المسلمين ومركز شباب الأنفوشى وغيرها، لقد كانت متاهة أو كعب داير، وقد أُلقى العبء كل العبء على كتفى وحدى فى ظل ظروف صحية ومالية شديدة السوء، وكنت قد فقدت حقيبة ملابسى وأشياء ثمينة أخرى فى إحدى سفريات العودة إلى القاهرة، بالإضافة إلى استجابتى لمطالب أشخاص كثيرة من أعضاء الفرقة متناسياً حكمة لم أتعلمها وردت فى إحدى قصص الكاتب النمساوى ستيفان زيفايج «احذر الشفقة» ولكننى لم أملك إزاء تخلى الإدارة

عنى وتورطى المالى وديونى إلا الشفقة. كانت هذه هى الرابطة الإنسانية الوحيدة التى ربطتنى بأغلب الذين شاركونى فى هذا العرض، ولكن لم يخل الأمر من عناصر جيدة على الأقل من الناحية الإنسانية أبرزهم مساعدى الأول محمد شوشان والفتاة التى وقع عليها اختيارى فى دور البطلة «لندا» هذه الفنانة الشابة الممتازة التى كانت تواجه ظروفاً شخصية واجتماعية قاسية واستثنائية، فاضطررت لتقديم ما لدىّ من مال لإقالتها من عثرتها، هذه الفتاة استمرت معى حتى آخر ليلة عرض، وأيضاً وجدت فيها ممثلةً كبيرة أدت دورها ببراعة كما أسهمت فى إنعاش البروفات، ولم تتوان عن طرح اقتراحات خلاقة فى خدمة العمل ككل، كذلك المصممة الراقصة قسمت التى قامت بدور فتاة المطعم آنسة فورسايت، فى حين كان هناك ثلاثة عناصر نسائية أخرى (إحداهن تعتبر نفسها عميدة ممثلات الإسكندرية والثانية عضو بهيئة التدريس بقسم المسرح بكلية الآداب والثالثة تعللت بأنها تسكن بعيدا!!) قمن بالهروب من دور لندا الصعب العميق الطويل والذى يستغرق حضوره على منصة العرض مدة لا تقل عن ساعتين ونصف الساعة، هؤلاء كن يستبدلن اكتشافى لضعفهن الفنى وجهلهن بحججٍ كثيرة ضد المنطق وضد شخصى، فضلاً عن وقوعى فريسةً لابتزاز بعض الممثلين كى أعطيهم من مال خصصته لطعامى ودوائى وطبيبى، لقد واجهت معوقات جسيمة وألاعيب صغيرة كثيرة أخرى حتى أننى كدت أترك العمل كله وأعود إلى القاهرة رغم أننى كنت قد أنفقت ما يزيد عن أجرى مرتين قبل أن

أتمكن من عمل شبه بروفة واحدة!. وعانيت أيضا فى تدريب الممثلين ياسر ياسين ورزق رمضان اللذين قاما بأداء دورىْ هابى و بيف إلا أنهما اجتهدا قدر الإمكان، وكذلك الممثل خالد محروس الذى أدى دور «هوارد» ببراعة، والممثل أحمد أبو النصر الذى قام بدور صغير جداً ولكنه كان مجيدا فى أدائه . أما عن دور «بن» هذا الدور الأسطورى الملئ بالغموض الذهبى، فلم أجد ممثلاً يستطيع أداءه رغم قصره، هذا من ناحية الكم، سوى ممثل ممتاز من كفر الدوار يدعى خميس يعمل بنجارة الموبيليا، ولكنه خاننى ولم يحضر البروفات الأخيرة التى لم يكن أمامى فرصة سواها!!

- وأين دور ويلى لومان أهم أدوار نص ميللر؟!

أداه ممثل متهالك متحلل القدرات لا قوام له ولا يصلح لشئ، ومع ذلك عاملته بمنطق (سد خانة)، فلم يكن أمامى غيره!

- ألم يكن هناك فى الاسكندرية ممثل غيره؟

لقد تبدل على دور «ويلى لومان» عدد من الممثلين، أحدهم ممثل قدير هو محمد الزهيرى من فرقة دمنهور القومية المسرحية، وكان قد سبق له أن عمل معى فى مسرحية توفيق الحكيم الكل فى واحد غير أنه لسوء الطالع تناول وجبة سمك غير طازجة فقتلته فى التو، فى نفس الوقت الذى كان عازماً فيه على المجئ للعمل معى فى فرقة الإسكندرية !!، ومع ذلك حاولت مع آخرين منهم الفنان السكندرى يوسف عبد الحميد ولكن مشاكله الشخصية

المعقدة ومطالبة المالية التى لا تنتهى قد أفسدت العلاقة بينه وبين المسرحية وبينى، وأذكر أيضا مخرجا بتليفزيون الإسكندرية «مدحت مكاوى» وكان يتميز باستعداد ثقافى وذهنى عالى واستجابة فنية لا بأس بها، ويبدو أنه أدرك صعوبة المهمة، فتعلل بانشغاله بعمله التليفزيونى واستعداده للزواج .

- الواضح أن العلاقات فى الإسكندرية برمتها لم تكن مستجيبة لمشروع إبداعى، يليق بنص «آرثر ميللر»، أو غيره من نصوص التراث الإنسانى الكبير!

يبدو أن الوضع لم يكن متعلقاً بالمسرح فقط، وإنما هو التفكك والانهيار الذى شمل حياة الإسكندرية كلها منذ الخمسينيات، فهى لم تعد المدينة (الكوزموبوليتانية) الفاتنة، لم تعد هذا الرأس المتطلع دوما نحو الشمال!! أو كما تصور حسن عطية، فقد تبدلت حتى أصبحت مجرد واجهة أمامية على الكورنيش فتبدو مدينة ساحلية مشوشة وأحياء عشوائية وبيوت ريفية الطابع، فى حين فقد الحى الشعبى تميزه وقوة نواته الاقتصادية والاجتماعية وثقافته الشعبية المميزة، مثل حى كوم الدكة العريق على سبيل المثال، وأيضا فقدت المدينة اقتصادها المتميز فلم تعد (مينا البصل) تصدر البصل والأقطان والمنسوجات المصرية، وأصبحت أبواب الجمرك لغير التصدير بل للمهربين، وسيطرت نخبة السياسيين اللصوص محترفى التضليل، فالإسكندرية مثلها مثل باقى المدن المصرية زحف الزيف إليها بسبب إفقار الريف ودمار الاقتصاد الوطنى،

وتجمدت الخدمات فيها بسبب بيروقراطية الإدارة وتعاليها المريب، أما المثقفون فأغلبهم اكتفوا بالكلام .. والكلام الفارغ بالذات، لم يبق من النخبة القديمة الأصيلة الأصيلة سوى من تخطوا سن السبعين، ولذلك لو كان لدى مثل هذا الوعى بأحوال المدينة، لما كنت اخترت مسرحية ميللر، فهى أرقى من أن تؤدى هناك فى هذه الظروف البشعة.

- بهذه الصورة أعتقد أنك ذهبت بنص جميل، ولكن الأحداث التى صادفتها كانت معوقاً للفن والإبداع والمعرفة معاً، فهل تبقى شئ داخل العرض المسرحى؟!

نعم تبقى رغم حدوث أشياء أقرب إلى الخيال منها: أن مصمم الديكور محمد هاشم أقام لى منظرا هزيلا وغير مناسب وغير قارئ للنص، أنجزه باستعجال تام لأنه كان يستعد للسفر إلى باريس، وحينما خاطبته تليفونيا هددنى أن يفضحنى بتهمة ضعف الموهبة!، وكنت قد أعطيته صوراً فوتوغرافية لنفس النص حين عرض فى أمريكا ولندن وجنوب إفريقا وكوريا الجنوبية ولكنه لم يستفد منها ولم يحاول، ورغم أن الموسيقى محمد طلعت الذى وعدنى بتكوين أوركسترا موازى للنص بأن يجعل لكل شخصية آلة أوركسترالية ونغماً يميزها، ولكننى لم أسمع منه شيئاً! ولم أره طيلة فترة البروفات، ولكنه ظهر فجأة قبل آخر بروفة و قبل العرض بثلاثة أيام، وبعد أن عزف بمهارة على البيانو استدرجنى لسيارته الخاصة، ليهمس فى أذنى بأن (الليلة خُلصت)، وعليك أن تكمل إجراءات العقد!!

وكنت قد أخذت موافقة استثنائية تجعله صاحب أعلى أجر موسيقى تعامل مع الثقافة الجماهيرية، هنا أدركت الخدعة فتظاهرت بالموافقة وتركته لأمزق عقده (شذر مذر) فى اجتماع كامل للفرقة، خصوصاً أنه كانت قد سبقته شائعات بأننى سأقسِّم معه أجره الكبير هذا، كما وعدنى مصمم الإضاءة شريف الدسوقى بإحضار لمبات وكشافات إضافية و(ديمر) ولكنه عند اللحظة الحاسمة قال لى بجمود: آسف لم أتمكن!

- إذن ما هو الإنجاز الحقيقى فى هذا المشروع الذى لم يصل إلى مداه الذى حلمتَ به. إذا كنت قد أنجزت شيئا تحتفظ به لتاريخك؟

إنجازان: الأول أننى خرجت بترجمة جديدة تماما للنص تبرز ثنايا أسراره ولغته التعبيرية و مناسبته التامه لمقتضيات فن الاداء التمثيلى و زمن الحركه المسرحيه وإيقاعها، والثانى أننى فوجئت فى ليلة العرض الأخيرة بمجموعة من مثقفى ومتعلمى الإسكندرية الذين ليس من عاداتهم دخول المسارح، وإنما هم قراء ومشاهدون انتقائيون لبعض الأفلام والبرامج التليفزيونية، فوجئت بهم يناقشوننى فى أعماق النص والعرض، ويدركون ما قصدته. هذا الأمر الذى تعبت بضعة أشهر لإيضاحه للفريق غير أن أغلبهم لم يفهم ! ! بينما فهمنى هؤلاء الأصدقاء العابرون! ! هنا أدركت أننى حققت إنجازا كنت أبغيه حين حضرت إلى مدينة الإسكندرية كى أتصدى لهذا العمل، لذا طلبت رسميا إعادة العرض لمدة ثلاثة أيام

على مسرح الأنفوشي بعد فراغه من المهرجانات والأنشطة التى يشكل أغلبها زحاماً لا داعى له، ولكن السيدة مديرة المديرية والتى ترقت بعد ذلك إلى مديرة فرع ومناصب أخرى، رفضت تماما طلب إعادة العرض الذى قدمته مديرة القصر السيدة (حنان شلبي) التى كانت السند الإدارى الوحيد لى فى هذه المحنة .. أعنى المسرحية !!.

- هل تستشف من تجاربك الإخراجية تلك، التى اكتمل منها وأيضاً الذى لم يتجاوز كونه مجرد مشروع لم يدخل حيز التنفيذ، هل تستشف ملاحظات عامة على نفسك وعلى غيرك وعلى الجهة أو الجهات التى تعاملت معها؟ أو بمعنى آخر هناك دروس يمكن الإفادة منها أو ما يمكن أن نسميه خلاصة التجربة .. أى تجربتك ؟

نعم يوجد. لدىّ ما يمكن استشفافه وما يمكن التعلم منه، سواء أنا أو الآخرين غيرى ولك أن تعود لكل ما تعرضت له من مفاهيم مغلوطة ولكيفيات تعاملى الفنى مع النصوص التى اخترتها وكذا لتعاملى مع خشبات المسارح المختلفة والفنانين